التأويل و تعدد المعنى

الأستاذة : دندوقة فوزية
قسم الأدب العربي
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة محمد خيضر–بسكرة (الجزائر)

ملخص:

هذا المقال يتحدث عن دور التأويل في استنطاق النص و جعل الواحد منها دالا على أكثر من معنى، و ذلك طبعا بعد بزوغ فجر المناهج النقدية الحديثة التي تعطي القارئ سلطة تمكنه من قول ما لم يقله المؤلف (موت المؤلف) ، فالنص متعدد المعاني بتعدد قرائه، الأمر الذي يجعل القبض على مقصدية الكاتب صعبا بل و في بعض الأحيان مستحيلا.

Abstract:
:

This article comes to talking about the role of interpretation in questioning texts and make them one indication of the more than one meaning, and, of course, after the dawn approaches monetary authority that gives the reader unable to say what the author did not say (the death of the author). Text multi meanings with multiple readers
And this makes the arrest of the author intended impossible.

تمهيـــــد:

مع ترسخ الاتجاهات البنيوية وما بعدها جاء الإعلان عن موت المؤلف، وميلاد القارئ، و هنا نزعت عن المؤلف كل الامتيازات التي اكتسبها خلال فترة مضت من تاريخ الأدب، حيث كان يتمتع بعناية زائدة، أصبح بموجبها الاهتمام بملابسات حياته وسيرته الذاتية يشغل حيزاً كبيراً من الجهد النقدي، امتيازات مُنِحت للقارئ ليصبح المؤلف البديل و الصوت المهيمن على ما سواه.

إن زمن سلطة الأديب الذي ولى قد أخلى المكان لسلطة القارئ/ المبدع، فقد أدركت المناهج الحديثة اليوم أهمية جميع الأطراف في العملية التواصلية، فبعد أن كانت النصوص تنغلق على ذاتها، و لا تمنح إلا ما أراده المؤلف، جاء الاهتمام بالنص كنظام منفتح، و بالقارئ كطرف أخير و أول في الوقت نفسه، يكون الأخير لأنه يتلقى إنتاجا أرسله المبدع الأول الذي ستنتهي أهميته نوعا ما عندما يضع نقطة النهاية، و يكون الأول بعد أن كان الأخير؛ لأنه سيصبح بعد القراءة كاتبا جديدا و مبدعا ثانيا، تبدأ من قراءته عملية تواصل جديدة. فلا جدال في أن عملية القراءة بالمفهوم الحديث هي عملية تشكيل و بناء، و هذا يعني أنها تفتح الباب على مصراعيه أمام القارئ، ليبحث فيما بين يديه عما هو غائب، و عن الصلة القائمة بين البنية و مقصد صاحبها، أملا في الوصول إلى معنى يراه موضوعيا أو يكاد،

و ذلك عندما تنفتح النصوص و تكشف عن دلالاتها الباطنية، ليس للجميع بل لمن لديه من المعرفة و البصيرة ما يمكنه من فك جميع الشفرات.

... هكذا أخذت المناهج التي تسمح بقراءات متعددة للنصوص في الازدهار، و على رأسها المنهج التأويلي الذي ينفتح على الفهم، فهو يستعمل آليات و مفاتيح لغوية و رمزية و ابستيمولوجية في إدراك حقائق الأجزاء و المكونات، فالتأويل و لاشك مفتاح للمعنى المتواري و الخفي وراء العبارات الظاهرة الخفية[1].

و قبل الانطلاق في تحديد أهمية التأويل في قراءة البنى النصية لا بد من الإشارة إلى المعنى اللغوي و الاصطلاحي لهذا المصطلح:

<u>تحديـــد الــــــمفهوم:</u>

التأويل مصدر على وزن (تفعيل)، من أوّل، يؤول، تأويلا، و مادة الكلمة هي (أَول)[2].

قال ابن فارس: "أَول: أصلان. هما: ابتداء الأمر و انتهاؤه. من استعماله في الابتداء قولك: الأوّل و هو مبتدأ الشيء. و من استعماله في الانتهاء قولهم: الأيل، و هو الذكر من الوعول، و سمي أيلا لأنه يؤول إلى الجبل و ينتهي إليه، ليتحصن فيه. و قولهم آل، بمعنى: رجع. و الإيالة: السياسة، لأن مرجع الرعية إلى راعيها. و آلُ الرجل: أهل بيته، سموا بذلك لأن مآلهم و مرجعهم و انتهاءهم إليه، كما أنهم هم ابتداؤه. و الأَول: بمعنى الانتهاء و المرجع، و تأويل الكلام: عاقبته، و ما يؤول و ينتهي إليه"[3].

و قال ابن منظور في بيان معنى هذه الكلمة : " الأوْل الرجوع ، آل الشيء يؤول ومآلا رجع ، وأوّل إليه الشيء: رَجَعَهَ. وأُلْتُ عن الشيء: ارتددت. يقال: طبخت النبيذ حتى آل إلى الثلث أو الربع أي رجع ، والأيّل من الوحش: الوعل ، قال الفارسي: سمي بذلك لمآله إلى الجبل يتحصن فيه"[4]

إن المعنى الجامع الأصلي للتأويل هو الرد و الرجوع إلى الأصل،

و بذلك يكون معنى (تأويل الكلام) رد معانيه و إرجاعها إلى أصلها الذي تحمل عليه، و يجب أن تنتهي إليه[5]. إلا أننا نلمس فارقا و لو بسيطا في معناه الاصطلاحي من بيئة إلى أخرى، فإن كان يعني عند الفلاسفة و المتكلمة و علماء أصول الفقه و المفسرين صرف اللفظ عن معناه الظاهر، قصد إدراك المقاصد، فإنه في البيئة النحوية يعنى بحمل الظواهر اللغوية على غير الظاهر للتوفيق و المواءمة بين أساليب اللغة العربية و قواعد النحو[6].

و قد نبه الإمام أبو العباس أحمد بن تيمية إلى أن لفظ التأويل قد صار بثلاثة معان بسبب تعدد الاصطلاحات:

– أحدها: أن يراد بالتأويل حقيقة ما يؤول إليه الكلام و إن وافق ظاهره، و هذا هو المعنى الذي يراد بلفظ التأويل في الكتاب و السنة. كقوله تعالى: ﴿ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلهُ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾[7] .

– و الثـــــاني: يراد بلفظ التأويل: التفسير، و هو اصطلاح كثيرمن المفســرين. و لهذا قال مجــاهد– إمــام أهـــل التفسير – إن (الراسخين في العلم) يعلمون تأويل المتشابه، فإنه أراد بذلك تفسيره و بيان معانيه، و هذا مما يعلمه الراسخون.

– و الثالث: أن يراد بلفظ التأويل صرف اللفظ عن ظاهره الذي يدل عليه ظاهره إلى ما يخالف ذلك لدليل منفصل يوجب ذلك. و هذا التأويل لا يكون إلاَّ مخالفًا لما يدل عليه اللفظ و يبينه. و تسمية هذا تأويلاً لم يكن

في عرف السلف، وإنما سمّى هذا وحده تأويلاً طائفة من المتأخرين الخائضين في الفقه و أصوله و الكلام، وظن هؤلاء أن قوله تعالى:

﴿ **و ما يعلم تأويله إلاَّ الله**﴾[8] ، يراد به هذا المعنى، ثم صاروا في هذا التأويل على طريقين ...إلخ.

و شواهدنا السابقة تؤكد أن كلمة التأويل قد تكررت في القرآن الكريم في سور كثيرة، بل تكررت في بعض السور أكثر من مرة[9]، من ذلك مثلا قوله تعالى: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا يعلمه و لما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**﴾[10]، و قوله أيضا: ﴿**هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق**﴾[11].

دور التأويل في الكشف عن المعاني:

لقد أشرنا في موضع سبق إلى أن معظم الاتجاهات النقدية الحديثة تجمع على إيلاء القارئ دورا كبيرا في إعطاء العمل الإبداعي الذي يقرؤه معنى بعينه، حتى صار النص بنية خاضعة لقوة الذات التي تؤوّله ورحمتها، و هو بهذا المعنى مفتوح دائما على جميع التأويلات المستمرة، والمتغيرة مع كل قراءة، لهذا اكتسب القارئ مع هذه الاتجاهات و نظرياتها دورا إيجابيا نشطا، معبرا عن قيمته و أهميته بدلا من دوره السلبي الذي كان يجعله مجرد مستهلك. لقد أصبح القارئ منتجا وبانيا، تفيض في قراءته المعاني[12]،
و أصبح صاحب النص طرفا غائبا، لا يحضرنا ذكره إلا في سياقات خاصة. ومادامت معاني النص متعددة بتعدد قرائه فإنه من الصعب ،إن لم يكن من

المستحيل القبض على المعنى الذي قصده الكاتب، فإن تشييد معنى النص يتطلب من المتلقي إستراتيجية تأويلية تمليها إشارات المتن،وبالتالي يصير الضفر بالمعنى أشبه بالعثور على ذات القارئ عبر استدعاءات المعطل والمكسور فيه لحظة القراءة، مادام زمن التلقي هو زمن ولادة المعنى و إنتاجه. بهذا المعنى نتمثل مقولة أيزر: لا يصبح النص حقيقة إلا إذا قرئ.

إن الإقرار بقدرة القارئ على إنتاج المعاني و توليد الدلالات يضعنا أمام جملة من التساؤلات التي ترفض تحول القارئ من متلق سلبي إلى باث جديد، و بان متميز: ما الذي يقرؤه القارئ في النص، حتى تتبدى له المعاني الجديدة؟ هل يقوم بإسقاط اهتماماته ورغباته على النص؟ أم أن النص نفسه يفرز في القارئ هذه الاهتمامات والنتائج؟ هل ما يملي القراءة والاستجابة هو ظروف خارجة عن النص أو تابعة له؟ بمعنى هل يتجدد النص نفسه لتوفر كفاءات لغوية مختلفة لدى القراء، أو لظروف اجتماعية و سياسية و اقتصادية معينة أم أنه يتجدد باعتباره إنتاجية خاماً تستدعي الحفر فيها، ثم أخيرا كيف يمكن أن يلتقي القراء، إن قليلا وإن كثيرا، حول معنى ما مشترك، أو اصطلاحي، في نص معين.

تختلف الإجابات عن هذه الأسئلة دون شك، فهناك من يعود لأهمية دور النص في تشكيل فهم القارئ، وهناك من يرسخ مركزية القارئ نفسه، ويعطيه كل صلاحيات المؤلف والنص معا، فيفتح له أفق القراءة، ويوسع صلاحيات التأويل. إلا أن الواقع يؤكد أن المعنى يتم إنتاجه من خلال تفاعل أطراف عديدة وسياقات مختلفة، إذ من الصعب بمكان أن نكثف دلالات بنية ما في ظروف تغيب فيها قيمة النص، و مرجعياته، أو يفتقد فيها القارئ سرعة البديهة، فلا يملك إلا أن يكون مستهلكا ساذجا.

و إذا كانت الغلبة في الدرس النقدي الحديث من نصيب القارئ فإن ذالك كله بفضل قدرته على التأويل، و منح النص معنى ربما لم يوضع فيه أساسا، و بهذا فإن علاقة النص بالفعل التأويلي أصبحت علاقة لزومية، فلا نص دون قارئ، و لا نص دون تأويل.

و قد شغلت هذه العلاقة كثيرا من المنظرين الغربيين كأمبيرتو إيكو، وميشيل غاستيي، وشاغل بورس وجاك ديريدا، وغيرهم في الجانب الدلالي والسيميائي، فمصطلح التأويل عند هؤلاء أساس في دراسة النص في مستواه النظري أو التطبيقي، خصوصا عند بعض النظريات كالتفكيكية التي تسعى إلى تفكيك النص وتفجيره إلى وحدات يتعقبها المؤول للوصول إلى التناقض أو عدم الانسجام، أوعند أنصار المعنى الحرفي للنص، وذلك أنه داخل حدود لغة كل نص يوجد معنى حرفي للمفردات المعجمية التي يتعقب المؤول آثارها في استنباط شبكة من الدلالات المتقاربة أو المتباعدة. وقد ظلت أمثال هذه النظريات محل القبول أو الرفض بسبب العلاقات المتشعبة للتأويل التي يفهم منها عكس ما يذهب إليه المستوى النظري[13]. وقد أدت مناقشات مصطلح التأويل وعلاقته بالنص من حيث وجوهه ونظائره إلى مشاحنات في اعتباره وسيلة من وسائل الفهم أو مبدأ من مبادئ الخلاف؟ وفي هذه المسألة نجد للتأويل نصيبا من الاهتمام في الدرس الحديث.

لقد استطاع فعل التأويل أن يحول القراءة من فعل استهلاك لفعل إنتاج، لأنه يرقى بعملية القراءة إلى مدارج المعايشة الحميمة لفسيفساء النص، والتمثل العميق لمفاتنه، فتصير علاقة القارئ بالمقروء علاقة رغبة واشتهاء متبادلة، لكن هذه العلاقة تختلف باختلاف أهداف المتلقي، فهناك القراءة التي تعتمد الاستيعاب المتنامي منطلقة من الجزء إلى الكل، وهناك التي تعتمد

استباق المعنى بناء على التخمين، وإدراك الكليات أولا، فضلا عن القراءة التفاعلية التي تشيد المعنى لا قبل القراءة و لا بعدها، ولكن إبان الفعل نفسه. فتفاعل القارئ مع المتن هو الذي يحدد طبيعة النص؛ فهل هو محرض أم مسالم، وديع أم متوحش؟ ومع المراس والدربة تتكون لدى القارئ طقوس وعادات قرائية كالسرعة في الاستيعاب، و تجميع المعنى الإجمالي في جمل محدودة ورصد التيمات..معتمدة مهارات الانتقاء والتخزين والتأويل وما شابه ذلك[14]...

إن فعل القراءة لم يعد تلك الممارسة البسيطة التي يمرر فيها البصر على السطور، و لا ذاك الاستقبال التقبلي الذي نكتفي فيه عادة بتلقي الخطاب تلقيا سلبيا، اعتقادا منا أن معنى النص قد صيغ نهائيا وحدد، ولم يبق سوى العثور علية كما هو، أو كما كان نية في ذهن القارئ، لقد صار فعل القراءة عملية إنتاج و توليد، فأمام القارئ مناهج كثيرة يقرأ وفقا لها النص الذي بين يديه، و له أن يختار منها ما يريد، فيحلل و يؤول كما يشتهي.

و هنا يعرض بارت نوعين من النصوص هما: النص الكتابي، والنص القرائي، فالنص الكتابي هو النص الحديث الذي يمثل (الحضور الأبدي)، و تجده يدعو إليه، نظرا لأهميته، فالقارئ فيه ليس مستهلكا، بل منتجا للنص الذي يكتب من جديد مع كل قراءة، مقابل النص القرائي الذي يطغى على الأدب، و ما يمكن أن يعطى لهذه النصوص من وصف أنها نتاج لا إنتاج، إنها التأليف الأول الذي يبقى على صورته الدائمة مع كل قارئ، و يمثل النص القرائي الأدب الكلاسين، لأنه أدب يقرأ فقط، دون أن تؤول معانيه و تجدد لتُعاد كتابته[15].

و نستطيع أن نفسر تعدد القراءات في ضوء ثنائية (الظاهر / الباطن) التي تتجلى بوضوح في النص القرآني كما تتجلى في الوجود و الإنسان[16]، فلا شك في أن كل نص إنما هو وجهان متلازمان الظاهر منهما أحادي و الخفي(الباطن) متعدد، و طالما تعددت أشكال هذا الوجه أصبح بإمكان كل قارئ أن يفهم المعنى الذي يقارب مستواه الثقافي و الاجتماعي... أو بعبارة أخرى طفى على السطح(الظاهر) شكل من أشكال هذا الوجه يتلاءم و القارئ الذي وضع نفسه بمواجهته، فإن كان بارعا في القراءة و التأويل، ممتلكا لناصية اللغة، تمكن من البلوغ إلى أبعد المعاني، و إن كان قارئا يتلفظ بالأصوات وفق تسلسلها الذي خطت به في النص، فلن يتمكن من اجتياز عتبة المعنى الظاهر، لأن التأويل الذي هو قراءة ما لم يكتب يتطلب أدواته الإجرائية التي تنقلنا إلى أبعد مستوى من أعماق النص.

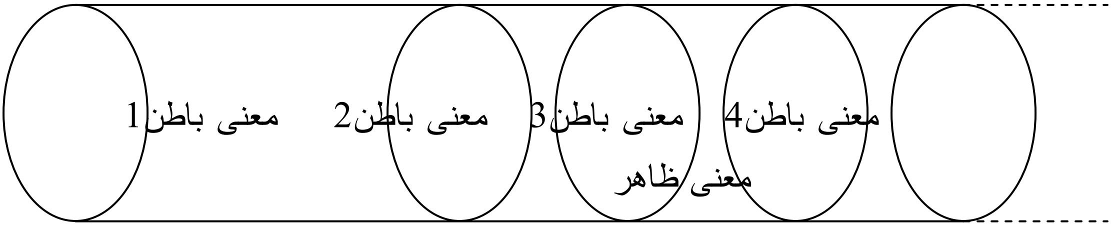

فإذا كان المعنى الظاهر والقريب للنص ملكا عاما ومشاعا، فإن المعنى الخفي يستلزم بحثا عميقا من أجل سلامة التأويل؛ لأنه ثورة وتدمير للمعنى الأول، وهذا ما يؤكد أن معنى النص بصيغة الجمع دائما، متجدد باستمرار، لا يتشابه حتى مع ذاته ، لأن قراءتك الأولى له ستختلف لا محالة عن الثانية من حيث المعاني والاستنتاجات، فكل قراءة كما سلفت الإشارة

هي خلق جديد للمعنى، واستدعاء لإحدى دلالاته الراقدة في أعماق النص، ومادام كل نص مأهولا بما لا نهاية من النصوص الأخرى، فإنه غير قادر البتة أن يعيش بمعزل عن النصوص الأخرى التي تدخل معه في تحد وصراع..إن سبب تعدد معاني النص يرجع لفعل القراءة أساسا.. فضلا عن كون النص الأدبي عالما متخيلا يخاطب الوجدان والعقل ويمزج بين محتمل الحدوث والواقع، و يجمع بين الإمتاع والإفادة، ولا يحتكم لمنطق الصدق والكذب.

و يدخل في سياق إنتاجية المعاني ظاهرة تداخل النصوص (التناص)، حيث نظرت جوليا كريستيفا إلى النص الأدبي باعتباره أداة تحويل للنصوص السابقة أو المعاصرة، فالاستفادة من هذه النصوص في نص جديد يؤدي إلى تحويلها في دوالها و مدلولاتها، و كأن النص يعيد قراءة النصوص التي دخلت في تكوينه، و يقوم بتحويلها لفائدته الخاصة[17].

السيـــــاق و التأويـــــل:

و يجب أن لا نهمل هنا الدور الفعال للسياق في تحديد معنى الوحدات الكلامية، حيث تعد المعرفة القبلية به مهمة جدا لفهم السياق اللغوي ، مهما كانت لغته ، لأن النص الإبداعي يخلق في " مناخ سوسيولغوي ، يتفاعل معه الأديب بوصفه منظومة لغات جماعية أيديولوجية ، تتفاعل مع الموروث الحضاري ، و تستحدث تقنيات جديدة ، تخترق الفضاء ، و تختزل الزمن ، و تنفتح على طاقات من التخييل يصعب الإمساك بتلابيبها"[18] ، فما من نص يولد من فراغ ، و إن قيد المبدع أفكاره ، فإنه لن يستطيع أن يفصل أو يخلق

حاجزا بين نصه و الظروف التي أنتج فيها، فهو على حد قول أحد الدارسين " يشبه النطفة التي تقذف في الرحم"[19]، و ينشأ عنها كائن بيولوجي ، قد لا يحمل بالضرورة ما يدل على والديه ، لكن تركيبته الجينية كاشفة عنه لا محالة ، فالعلاقة بين النص و بيئته أو سياقه العام (الموقف غير اللغوي) هي كالعلاقة بين النطفة وصاحبها ، و من هنا نشأ الاهتمام بالمقام في الدراسات اللسانية الحديثة، حتى كاد البعض يوليه أهمية أكثر من السياق نفسه. فهو ذو أهمية كبرى في تحديد بعض الدلالات التي تحملها الرسالة ، و بدونه قد تحاط بهالة من الغموض يعسر على المتلقي فهمها، و هذا ما يبرر انهيار المنهج البنيوي الذي اقتصر على تحليل النص وحده ، دون ربطه بمراجعه و خلفياته ، من مبدع و ظروف اجتماعية ، فحمل في طياته بذور فنائه ، و وضع نفسه أمام الباب المسدود ، بسبب هذه الانغلاقية. وقد اعتبر علماء البلاغة أن مراعاة ظروف النص أمر لا بد منه ، فهي في رأيهم "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"[20]. فتأويل النصوص إنما يتحدد بسياقها و بحال المتكلم بها.

الخاتمـــــة:

إن الدراسات الحديثة تجعل من النص الواحد جملة من النصوص باعتبار ما يحمله الواحد منها من معنى ظاهر و معنى خفي (أو معان خفية) لا يتسنى الكشف عنه إلا بما يسمى بالمناهج التأويلية التي تتيح لصاحبها استنطاق البنية اللغوية و إثراءها بالمعاني و الدلالات، استنادا إلى جملة من الشروط أولها السياق، فالمعنى المباشر للرسالة سيكون أسهل في وضع لا نملك فيه أدنى معرفة بملابسات الخطاب، لأن عملية التأويل تحتاج دائما إلى إدراك كلي بمختلف الجوانب المحيطة به.

هوامـــش ومراجـــع

1

1- محمد شوقي الزين، تأويلات و تفكيكات، فصول في الفكر العربي المعاصر ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ط1، 2002 ، ص 27

2-صلاح عبد الفتاح الخالدي،تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دار القلم، دمشق، ط1، 2002، ص 25

3- ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون،دار الفكر ،ص 98، 100

4- ابن منظور، لسان العرب،، دار صادر بيروت ، ط3 ، 1994، مادة أول 130/1

5- صلاح عبد الفتاح الخالدي، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، ص26

6- عبد الجليل بن عبد الكريم سالم، التأويل عند الغزالي نظرية و تطبيقا، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004، ص31، 32.

7- الأعراف/52

8- آل عمران/7

9- محمد أحمد نوح، جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية، ط1، 1997

10- يونس/ 39

11- الأعراف/ 53

12-حسن ولد مختار، القراءة و النص المفخخ:
http://www.odabasham.net/index.php?lang=0&CODE=14&id=4330

-13 www .islamicfeqh.com /al-menhaj /almen23 /minha
الموقع الالكتروني
14- المرجع نفسه -
[15]-رولان بارت ــ النقد البنيوي للحكاية ــ تر: انطوان أبو زيد ــ دار عويدات، بيروت،1988 ، ص4 نقلا عن: محمد عزام، النقد بين النص و المتلقي، جريدة الأسبوع الأدبي، ع920 ، 2004 (مجلة الكترونية)
16- نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط5، 2003، ص361.
[17]- ينظر: حميد لحمداني، القراءة و توليد الدلالة، تغيير عاداتنافي قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2003، ص 25
18- شادية شقروش ، الخطاب السردي في أدب إبراهيم الدرغوثي، دار سحر للنشر، (د ط)ص 63
[19]- نقلا عن : شايف عكاشة ، نظرية الأدب في النقدين الجمالي و البنيوي، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، ص 105
[20]- عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، ص11